مجلة التمكين الاجتماعي
المجلد 05 / العدد 01 / مارس 2023 / ص ص 41 - 50
Journal home page: https://sej-lagh.com
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/644

دورومكانة الدين في ظل التغيرالاجتماعي

The role and place of religion in light of social change

فتيحة صنور
Sennour Fatiha
جامعة معسكر (الجزائر)، البريد الالكتروني: fatihasennour@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/12/31 تاريخ القبول: 2023/03/16 تاريخ النشر: 2023/03/31

الملخص

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على دور ومكانة الدين في حياة الفرد والمجتمع وهذا في ظل موجة التغير الاجتماعي التي شهدها العالم برمته وقد تجسدت مظاهرها في الحداثة، العولمة، الغزو الثقافي كما أنها تجاوزت كل الحدود والخصوصيات بما فيها المعتقدات الدينية، فهذه الأخيرة من أبرز الخصوصيات التي تميز بين الشعوب والمجتمعات ورغم ذلك لم تسلم من تأثير تلك الظاهرة، ومرد ذلك هو أن الإنسان بطبيعته ميال إلى التغير مثلما هو ميال إلى التدين. إضافة إلى وجود علاقة تفاعلية بين الدين والتغير الاجتماعي.

ومما لا شك فيه هو أن الدين هو نزعة طبيعية فطرية في الإنسان، وقد وجد منذ الأزل، فالإنسان منذ البداية شعر بالنقص وبالحاجة إلى إله يعبده ويلجأ إليه وقت الأزمات، وقد وجد ضالته في القوى العليا وما وراء الطبيعة ومع الوقت عرف ديانات مختلفة حتى وصل إلى دين التوحيد مع الإسلام الذي كان آخر دين عرفه الإنسان في حياته. وإذا كان الدين يمثل أحد الجوانب المهمة في حياة الفرد والمجتمع ويتفاعل مع جميع الأنظمة والأنساق الاجتماعية، فإنه بطبيعة الحال سوف يتأثر بما يطرأ على تلك الأنساق من تغيرات، فالدين ليس في منأى عن التحولات الاجتماعية ومستجدات العصر خاصة وأن هذا التحول أو التغير الاجتماعي هو أمر طبيعي وضروري في الحياة الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الدين، التغير الاجتماعي، الحداثة، وظيفة الدين.

ABSTRACT

Through this research paper, we seek to shed light on the role and place of religion in the life of the individual and society, and this is in light of the wave of social change witnessed by the whole world, and its manifestations have been embodied in modernity, globalization, cultural invasion as it has exceeded all borders and particularities, including religious beliefs, the latter is one of the most prominent characteristics that distinguish between peoples and societies, although it has not been spared the impact of this phenomenon, and the reason for this is that man is by nature inclined to change. Just as he is inclined to religiosity. In addition, there is an interactive relationship between religion and social change.

There is no doubt that religion is an innate natural tendency in man, and has existed since time immemorial, man from the beginning felt inferiority and the need for a god to worship and resort to him in times of crisis, and he found his way in the higher powers and the supernatural and with time he knew different religions until he reached the religion of monotheism with Islam, which was the last religion known to man in his life. If religion represents one of the important aspects in the life of the individual and society and interacts with all social systems and patterns, it will naturally be affected by the changes that occur in those systems, as religion is not immune from social transformations and developments of the times, especially since this transformation or social change is natural and necessary in social life.

***Keywords**: religion, social change, modernity, function of religion.*

- المؤلف المرسل: فتيحة صنور، البريد الالكتروني: fatihasennour@yahoo.fr

1- مقدمة

لقد شكلت الظاهرة الدينية موضع اهتمام البحث في مجال العلوم الإنسانية وخاصة في ميدان عام الاجتماع الديني الذي من خلال مناهجه وتقنياته يسعى إلى دراسة وفهم الظاهرة الدينية وعلاقتها مع باقي الظواهر الاجتماعية، وذلك بتبيان دور الدين وأهميته في المجتمع وحياة الإنسان عامة، فالدين نزعة فطرية في الكائن البشري، لا يمكنه تجاوزها أو العيش من دونها ودليل ذلك هو أن الدين والتدين وجد منذ القديم وعرفته كل المجتمعات البشرية حتى الأكثر ببدائية، حيث أنه لم يوجد قط مجتمع خلى من النزعة الدينية.

ومع تطور المجتمع البشري تطورت أشكال ومظاهر الدين والاعتقاد، حيث أن هذا الأخير تماشى مع الإنسان في جميع مراحل تطوره فبعدما كان يعتقد ويؤمن بالأرواح كأبسط وأدنى شكل من الاعتقاد، انتقل إلى عبادة النجوم والشمس والقمر وكل ما يرمز إلى الرفعة والسمو كشكل أرقى من الاعتقاد، وبالتالي الإنسان في مساره الديني الاعتقادي انتقل مما هو أدنى إلى ما هو أعلى ومن تعدد الآلهة إلى الإله الواحد أو ما سماه كونت دين الإنسانية الذي تجسد لاحقا في دين التوحيد الدين الإسلامي.

ومن جهة أخرى فإن ارتقاء الإنسان في مجال الاعتقاد صاحبه أيضا ارتقائه في مجال العلم والتكنولوجيا وتجسد هذا من خلال عصر النهضة وظهور الثورة الصناعية، فتقلص مجال الدين في حياة الإنسان الأمر الذي جعل الكثير من علماء الاجتماع والفلسفة يتنبؤون بنهاية الدين وزواله، ومن هؤلاء سان سيمون الذي أرجع انحطاط الدين (تضاؤله) والتقليد في الأصل إلى أزمة الحداثة خلال فترة الثورة الصناعية في نهاية القرن 18وبداية القرن 19. (boutafnouchat.m.2003. p 13.) ولكن هذا لم يحدث على أرض الواقع ،فقد تأثر الدين بتلك التحولات، و نظرا لكونه ضرورة اجتماعية و حاجة إنسانية فإنه لم ينته كما تنبأ بذلك علماء الغرب لأن من خصائص الديني أنه يتحول و لا يندثر.

ومن ناحية أخرى فإن هذا الوضع شكل اهتمام مفكري عصر الحداثة، حيث قاموا بدراسة الظاهرة الدينية كظاهرة اجتماعية تمتاز بالثبات والاستقرار والمحافظة على القيم والمبادئ الدينية الموروثة في مجتمع يتجه نحو التجديد والحداثة ويتجاوز كل ما هو تقليدي ماضي. ومن هنا أصبح الديني يعيش في صراع مع الحداثي، الأمر الذي أنجر عنه تأثير وتأثر متبادل بين كلا الطرفين.

وعلاوة على ذلك فإن الدين يعتبر المرتكز الأساسي لأي حضارة ولأي مجتمع، الأمر الذي يجعل منه العامل الأكثر والأعمق تأثيرا على سلوك الفرد نحو نفسه ونحو مجتمعه، خاصة وأن هذا الإنسان في تغير متواصل مما جعله بحاجة مستمرة إلى ما يحقق التوازن والتعادل بين مكوناته المادية والروحية وفي هذه الأثناء تأتي أهمية الدين والقيم المرتبطة به في رسم حدود ومعالم الحياة الاجتماعية وفق منظور مقدس لا يمكن المساس به، حيث أن الدين يلعب دوره كناصح ومرشد يرافق الإنسان في أفعاله ومعاملاته ويدله على الطريق الصحيح.

ومما لاشك فيه أن هذا الدور يندرج ضمن إحدى العمليات الاجتماعية المهمة في ضمان بقاء المجتمع و استمراره بشكل مضبوط و منظم وهذه العملية هي الضبط أو الرقابة الاجتماعية " le contrôle social" فالدين بحكم قداسته ومكانته في الحياة الاجتماعية يحتل موقعا مهما ضمن مؤسسات ووسائل الضبط الاجتماعي و ذلك من خلال تعاليمه ومبادئه التي تبين الحلال من الحرام و الجائز من المكروه و في نفس الوقت يجازي و يكافئ من يتبع تلك التعاليم و يخضع لها في سلوكاته ومعاملاته مع الغير و يعاقب من يخالفها و يتعدى الحدود المسموح بها. ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نقوم بهذا البحث لمعرفة مدى فعالية ودور الدين في الحياة الاجتماعية للفرد وهذا في ظل موجة التغير والحداثة التي اكتسحت مختلف مجالات حياتنا الاجتماعية.

2- الإشكالية

يعتبر الدين من أهم النظم الاجتماعية الفعالة وركن أساسي من أركان البناء الاجتماعي، حيث أنه يتفاعل مع كل أنساق المجتمع ويساهم إلى حد ما في تشكيلها وتنظيمها، ولذا كان النظام الديني من أهم النظم التي عرفها الإنسان في حياته وصاحبته في جميع مراحل تطوره. والدين إنما وجد لحاجة وضرورة اجتماعية تتمثل في تنظيم شؤون الحياة والتخلص من القلق الوجودي والخوف من المجهول، بالإضافة إلى تفسير ما يعجز العقل عن تفسيره وبتعبير دوركايمي وجد لضبط الأفراد ودمجهم في نسق موحد.

هذا، ونجد أن الدين بصفة عامة سواء كان وضعي أو سماوي قد قدم خدمات ووظائف عديدة للجماعة الإنسانية كما أنه كان عاملا من عوامل تأسيس وقيام الحضارات العريقة كالحضارة الصينية –عن طريق الكنفوشيوسية- والحضارة الإسلامية –عن طريق الإسلام – وذلك من خلال تهذيب السلوك وتقوية الروابط والعلاقات الاجتماعية وتربية الأفراد وتنشئتهم على القيم والأخلاق الفاضلة، وفي نفس الوقت قضى على القيم والسلوكات غير المرغوبة وكل أشكال الفوضى واللانظام. وهذا كله يندرج في مجال الضبط والتنظيم الاجتماعي الذي يسعى بكل أنساقه ومؤسساته إلى تحقيقه.

وبفعل هذه الوظائف التي يؤديها الدين في المجتمع فإنه أعتبر هيكلا تنظيميا للأفراد ومرجعا عاما لتحديد وتوجيه مواقفهم وسلوكاتهم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي le contrôle social ».

ولأن الدين يمثل أحد أنساق المجتمع فإنه بطبيعة الحال يتأثر بظروفه وأوضاعه، الأمر الذي جعل دوره ووظيفته في مجال الضبط الاجتماعي وتوجيه سلوكات الأفراد وتقويمها تتأثر بما يطرأ على المجتمع عامة والفرد خاصة من تغيرات وتحولات اجتماعية وثقافية في مقدمتها الحداثة والعولمة وما تحملانه من قيم وتصورات. ومن هنا قمنا بطرح التساؤل التالي إلى أي مدى أثرت الحداثة بقيمها ومبادئها على دور ومكانة الدين في حياة الفرد والمجتمع؟ وهل بالفعل تمكنت من إلغاء وإقصاء وظيفة الدين في المجتمعات المسلمة كالمجتمع الجزائر ي؟

3- مفهوم التغير الاجتماعي: Le changement social

التغير الاجتماعي هو من المفاهيم المهمة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وهو ظاهرة طبيعية عرفتها جميع الشعوب والمجتمعات عبر مراحل نموها، والتغير بشكل عام هو حقيقة واقعية وسنة من سنن الحياة، وكما قال هيراقليطس " التغير هو قانون الوجود، والاستقرار موت وعدم ". (أحمد رشوان.ح.2005. ص 282).

هذا، ويشير مصطلح التغير إلى الاختلاف بين الحالة الجديدة والحالة القديمة أو اختلاف الشيء عما كان عليه خلال فترة محددة من الزمن "(الغزوي.ف.2006. ص 288) أما التغير الاجتماعي فهو " التحول الذي يطرأ على البناء الاجتماعي في الوظائف والأدوار الاجتماعية خلال فترة محددة من الزمن وقد يكون هذا التغير إيجابيا وقد يكون سلبيا "(هندي. ص .2000 ص 255).

ومما لا شك فيه، هو أن التغير الاجتماعي يحدث نتيجة أسباب وعوامل مختلفة من أهم الثقافة والدين، حيث أن التبادل والاحتكاك الثقافي بين الشعوب والمجتمعات المختلفة يؤدي إلى حدوث تغير على مستوى الأفكار والمعارف والتصورات وكذلك على مستوى العادات والتقاليد، وكذلك الدين يساهم بقيمه وتعاليمه في إحداث التغير الاجتماعي في المجتمع العربي عند مجيء الإسلام. وهناك عوامل أخرى مثل: الاقتصاد، السياسة، النمو الديمغرافي، التطور التكنولوجي وكذلك الحروب والثورات، ولقد جاء في المعجم النقدي لعلم الاجتماع أن من الأسباب الحاسمة للتغير " التطور العلمي والتقني لدى كونت، أو من الدين لدى فوشي لدي كولانج ". (بودون. ر .1986-ص 167)

وإضافة لما سبق، فإن التغير الاجتماعي له عدة أشكال ومظاهر وقد تجلت أبرزها مع بداية عصر النهضة وقيام الثورة الصناعية في أوربا، ثم انتشرت أثاره ونتائجه في كل دول العالم بما فيها الدول العربية.

ومن مظاهر التغير الاجتماعي التي عرفها المجتمع العربي عامة والجزائر خاصة، التوجه نحو الحداثة وتبني قيمها، فقد أخذت معظم هذه المجتمعات تتجه إلى التجديد وتجاوز ما هو تقليدي من أجل مواكبة العصر الذي لم يعد يعترف بقيم الماضي، وإنما هو دائم التطلع إلى ما هو حديث وجديد. ومن جهة أخرى انتشرت ظاهرة التحضر التي " تعد من أهم معالم التغير الاجتماعي في الوقت الحاضر، وقد ترتب عليها تباين كبير في مختلف مكونات البناء الاجتماعي، حيث حصل تغير في نمط العلاقات والقيم ومختلف وسائل الضبط الاجتماعي "(الغزوي.ف.2006.ص 326)

وعلاوة على هذا، فإن أهم تجليات التغير الاجتماعي في المجتمع العربي تجسدت في الأسرة التي هي الخلية والبنية الأساسية في المجتمع حيث انتقلت من الأسرة النووية ومن "النمط التقليدي إلى نمط عائلي جديد يريد لنفسه الحداثة والعصرنة فكرا وسلوكا من الناحية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية "(سعيدي.م.1998.ص 45)

4- الحداثة كمشروع في عملية التغير الاجتماعي:

الحداثة "من المصطلحات المعاصرة وقد انتشرت في عصرنا الحالي انتشارا واسعا، واحتلت مساحة كبيرة في وسائل الإعلام وهي لفظة محببة، انتشرت مع بريق جذاب أخذ النفوس والألباب " (أبو يحي.م.2000. ص 332) وتعد الحداثة من أبرز مظاهر التغير الاجتماعي، وهي ظاهرة اجتماعية أوروبية الأصل والمنشأ، فقد ظهرت إرهاصاتها في أوربا وتطورت معالمها في المجتمع الغربي " فهي محصلة عملية تاريخية بدأت في أوربا زمن الإصلاح والنهضة "(الشرابي.هـ.2000 - ص 52). ثم أخذت تتوسع وتنتشر عبر مختلف المجتمعات التي تختلف من حيث خصوصياتها عن المجتمع الأوروبي.

ومن ناحية أخرى، فإن الحداثة هي" محاولة إقامة نظام معرفي كامل للحياة والإنسان ينطلق من مفاهيم مادية علمانية، تمثل قلق الإنسان الغربي وشكه «. (أبو يحي.م. 2000.ص 333). كما أن الحداثة باعتبارها نظام اجتماعي جديد تقوم على مبدأ جوهري هو الانتقال من النمط التقليدي إلى نمط جديد يختلف جذريا عما كان سائد قبله حيث أنه يعتمد على منهج ديناميكي يتجاوز كل ما هو ماضي تقليدي. وبما أن الإنسان بطبيعته ميال إلى التغير والتجديد، فإنه انبهر بمبادئ الحداثة ومغرياتها، وهذا الأمر جعل الإنسان يتبنى بدون تردد مشروع الحداثة وذلك من أجل مسايرة ومواكبة مستجدات العصر، وتغيير تلك الأنظمة التي أصبحت تقليدية وغير فعالة مقارنة مع الأنظمة والمناهج الحديثة.

ولقد كانت الجزائر من بين الدول التي تبنت مشروع الحداثة، وذلك مباشرة بعد الاستقلال و " كان مشروعا طموحا جدا، يهدف كما يدعيه الميثاق الوطني لسنة 1976 إلى إعادة البناء الكامل للمجتمع من خلال إنسان جديد لمجتمع جديد"(عزي.ف.2008.ص 183). وهذا يدل على أن الحداثة كمشروع في عملية التغير الاجتماعي لم تستهدف المجتمع بمؤسساته ونظمه المختلفة، وإنما استهدفت بالدرجة الأولى الإنسان لأنه هو الذي سينفذ هذا المشروع، فعمدت على تجديد أفكاره وتصوراته للعالم والحياة الاجتماعية، حتى يتمكن من التكيف والتعايش النمط الاجتماعي الجديد. وأخذت الدولة الجزائرية على عاتقها مسؤولية تطبيق هذا المشروع على المستوى السياسي والاقتصادي وكذلك المستوى الثقافي بما يتضمنه من عادات وتقاليد وقيم دينية.

ومن الناحية السوسيولوجية، فإن مشروع الحداثة أو التحديث الاجتماعي ساهم مساهمة كبيرة في عملية التغير الاجتماعي، ولقي رواجا كبيرا في التعبير عن الحوائج المادية كاللباس والمأكل ونمط الحياة بصفة عامة. وقد اعتمدت الحداثة في إحداث عملية التغير الاجتماعي على جملة من القيم والمبادئ تتجلى أهمها في: فصل وإبعاد الدين عن كل الأنشطة والممارسات الاجتماعية " لأن معيار الحداثة هو العقل والعلم وما لا يمكن قياسه بالمعايير العلمية ليس له مكان في الحداثة " (الميلاد.ز.1999. ص 79).

- الثورة على كل ما هو قديم وتحطيم جميع الثوابت والأعراف واستبدالها بمفاهيم جديدة: كالتحرر، التحضر، التقدم، التجديد...الخ.

- التخلص مما هو ماضي التبشير بالحرية والديمقراطية وهذا ما زاد من جاذبيتها خاصة وأن الإنسان المعاصر أصبح لديه عقدة نفسية نحو ما هو تقليدي وقديم.

وعليه، فإن اعتماد الحداثة كمشروع في عملية التغير الاجتماعي كان له عدة نتائج: منها: تعطل أو انحراف الأخلاق، " حيث أن تراجع الدين وتقلص التقليد وزيادة مستوى الحريات الفردية أدى إلى أزمة اجتماعية تجسدت في انحراف (تعطل) الأخلاق"(Boutafnouchet.M.2004.p 131). وهذا ليس بالأمر الغريب لأن من خصائص ومبادئ الحداثة " إهمالها لجانب الأخلاق، إذ لا مكان لها في منظومة الحداثة " (الميلاد .ز. 1999. ص 78).

ولقد أدى تطبيق مشروع الحداثة في المجتمع الجزائري إلى" انتقال أعداد كبيرة من سكان الريف إلى المراكز الحضرية الصناعية التي تعتبر إحدى عوامل التحديث ...كما أدى التحديث إلى تغير النظرة الخارجية للأفراد وسلوك الجماعات الذي يرتبط بوظيفتهم في المجتمع وليس بالنسبة لعقائدهم ولغتهم ومكان إقامتهم. (السويدي. م. ص 99). ومع نمو التحديث وتواصل عملية التغير الاجتماعي على مستوى أجهزة وبنيات المجتمع الجزائري، وجد الفرد نفسه في مجتمع تسوده الحرية وتضعف فيه القيود التي تحد من حريته، أصبح حرا في اتخاذ قراراته وأعماله الخاصة ولم يعد ملزما بقرارات عائلته أو عشيرته، وهذا أن من مبادئ الحداثة تشجيع الفر دانية داخل المجتمع، الأمر الذي يؤدي إلى إضعاف وتفكيك العلاقات والروابط الاجتماعية بين الأفراد.

5- تأثيرات الحداثة على دور الدين في المجتمع

انطلاقا من كون الحداثة مفهوم غربي و منهج جديد في الحياة يتوافق و خصائص المجتمعات الأوربية، فإن اعتماد وتبني هذا المنهج في المجتمعات العربية الإسلامية يصطدم و خصوصية هذه المجتمعات " لارتباطها تقليديا بالإيديولوجية الدينية ".(التواتي .م.2003 .ص 17) فالدين هو العنصر المهيمن عليها، حيث أنه يشكل جزءا من البناء الاجتماعي و يتفاعل مع كل الأنظمة الاجتماعية، و له علاقة مباشرة مع كل شؤون الحياة الاجتماعية لدرجة أنه لا يمكن الاستغناء عنه أو فصله عنها، وهذا يتناقض و يصطدم مع مبادئ و قيم الحداثة حيث أن المبدأ الجوهري لهذه الأخيرة هو عزل و فصل الدين عن الحياة العملية .

وبالتالي، اصطدام الطبيعة الدينية لهذه المجتمعات مع قيم ومبادئ الحداثة أدى إلى حدوث " العديد من التغيرات الاجتماعية التي كان لها انعكاس مباشر على الدور الذي يلعبه الدين كمكون ثقافي في رسم شخصية الفرد العربي ...وفي الحياة الاجتماعية حيث تراجع فيها دور الدين إلى الخلية العائلية ".(الهرماسي .ع ب.2000 .ص 121) ولذا فإن الحداثة في العالم العربي الإسلامي تشكل خطرا كبيرا على خصوصيته وذلك " لتلازمها مع العلمانية التي عملت على إقصاء الدين والقيم الدينية، وتنكرت لهوية الأمة وتراثها وتاريخها وحضارتها "(الميلاد .ز.1999 .ص 80) .

وإضافة لنا سبق، فإن الحداثة كنظام اجتماعي ومنهج في الحياة، تقوم على إحداث القطيعة مع كل ما هو ديني (مقدس) وهذا من خلال اعتمادها على العلمانية أو اللائكية، حيث أن هذه الأخيرة تعد إحدى المقومات الأساسية للحداثة فقد " مثلت موقعية العقيدة في خطاب الحداثة، فكانت شرطها الأساسي ومن غير العلمانية لا يمكن أن تتحقق الحداثة (الميلاد.ز.1999. ص 79)

وبالتالي فإن أخطر تحدي وتأثير تمارسه الحداثة على دور المجتمع عامة والمجتمع العربي الإسلامي خاصة هو اعتمادها على المنهج العلماني الذي " يهدف إلى عزل الدين عن التأثير في الحياة وفصله عن جميع النظم والمجالات، بحيث لا يكون له أدنى توجيه أو أثر في النواحي السياسية والاقتصادية والأخلاقية، والقانونية وتصبح هذه المجالات كلها عارية عن ضوابط الدين وأوامره ونواهيه ". (أبو يحي.م. 2000.ص 451- 452).

ومن المنظور السوسيولوجي، فإن تحديث المجتمع هو في الأصل سعي إلى علمنته و ذلك لأن الفضاء الثقافي لمجتمعنا هو الدين – الإسلام- أما الفضاء الثقافي للحداثة فهو العلمنة، ولذا فإن " عملية علمنة الثقافة بما تتضمنه من إزاحة القداسة وبما تتضمنه من عقلنة، تعني فيما تعني أن التصور الديني للعالم لم يعد الإطار المرجعي الأساسي".(الهرماسي .ع ب.2000.ص 27) وفي هذا السياق يرى كلود غيفياغ أن " ممارسة الشعائر الدينية التقليدية المجتمعات المشكلة بواسطة الحداثة اتجهت إلى الضعف، وفي نفس الوقت حدث انتقال من الطقوسية نحو روحانية أخرى" (Rivière.C. 2008.p 99)

إن الصراع القائم بين الحداثة والدين والذي أدى إلى تضييق المجال الديني وتراجع مكانة ودور الدين في المجتمع جعل المنبهرين بالمذهب الحداثي يتنبؤون بزوال وفناء الدين، ولكن هذا لم يتحقق على ارض الواقع، فالدين تراجع ولكنه لم يختف. وهنا يمكننا القول بأن الحداثة لا تمحي المعتقدات فالمعتقدات الدينية نفسها ليست أقل حضورا من الماضية والمجتمعات المعاصرة لا تعتقد أقل من الأمس. وبالتالي المعتقدات لا تختف بتطورات العلم، كما أشار عالم الاجتماع جرالد بروني ولكنها تتغذى في بعض الأحيان من العلم والابتكارات العلمية التي وسعت حدود الإدراك والتصور(HALPERN.C.2004.p20) . وهذا يعني أن فصل الديني عن بيئتنا الثقافية لم يؤد إلى محوه بل " بالعكس أدى إلى ظهوره كدين صافي (نقي) في الواقع ."(Roy.O.2008.p 08).

وعليه فإن هذا يُخَوِل لنا القول بأن تأثير الحداثة على مكانة ودور الدين في المجتمع لم يؤد إلى إلغائه واختفائه نهائيا وإنما أدى إلى تحوله وتضييق مجال توظيفه مما يدل على أن هناك " ترابط بين العلمانية ومعايشة الدين، وهذا الأخير ليس رد فعل ضد العلمانية إنما هو منتوج، فالعلمنة تصنع الدين وليس هناك عودة للدين بل هناك تحول " ((Roy O.2008 p 08 أما عودة الدين ما هي إلا خدعة بصرية كما قيل.

ومما سبق يمكن القول بأن إغراءات الحداثة و ما تحمله من مفاهيم ضخمة ،شكلت منعطفا حاسما في علاقة الإنسان بالدين حيث " أننا أقررنا أن الديني أصبح يتوارى أمام الإنسان العقلي و آمنا باختفاء السلوكات الدينية بالرغم من أن خبرة الناس اتجاه المقدس لم تختف حتى و إن تغيرت أشكال التعبير عنها من قرن لآخر و من ثقافة لأخرى " (Jeffrey.D.1998.p 47) و لذا لا نستطيع القول بأن دور الدين في المجتمع قد تراجع تماما و لكن نقول طريقة الاعتقاد وممارسة الطقوس الدينية هي التي تغيرت ، و قد أشار كلود غيفياغ في كتابه أنتروبلوجيا الأديان إلى التحولات الدينية في العالم الثالث خاصة و أن هذا العالم يغلب عليه الطابع الديني . وهذا الأمر أدى إلى ظهور شكل جديد هو" الدين الشخصي أو الفردي "(Jeffrey.D.1998-p 80) والذي يعد أحد نتائج تأثيرات الحداثة على الدين، ولذا فإن " نظرية فردانية الدين تدخل في الحداثة أو ما بعد الحداثة "(Rivière.C.2008.p 204). و قد أشار كلود غيفيارغ إلى أن الدين الذي تفرد متأخرا في الحداثة بقي مع ذلك قادرا على إنتاج رابط اجتماعي و هذا حسبما جاء في كتاب "رولاند كمبش- Roland Comphich ": حول وجهي الدين Sur les deux visages de la religion .

ورغم هذا، فإن الحداثة كانت و ما زالت تمثل تحديا قويا أمام دور الدين في المجتمع وخاصة المجتمع الإسلامي وذلك لما تحمله من قيم تنحدر عن ثقافة الغرب الأمر الذي جعل المسلمون يقفون أمام خيارين يتمثل أحدهما في المحافظة على قيمهم

التقليدية ذات الهوية المحافظة أمام غزو الحداثة بقيمها التقنية و الثقافية أما الثاني فيتمثل في الأخذ بقيم الحداثة بأبعادها المختلفة و ذلك بالتنازلات عن بعض القيم التقليدية المحافظة.

وخلاصة القول عن كل ما سبق هي أن الحداثة بما تحمله من مبادئ وتعاليم لم تكن منذ البداية على وفاق مع الدين حيث أن رهانات التحديث وما تفرضه ديناميكية المجتمع العصري الحديث فرضت نفسها بقوة على دور الدين في المجتمع، الأمر الذي أدى إلى حدوث صراع وتنافس حاد بين تيار الحداثة وتيار الدين داخل المجتمع. وقد تجسد هذا الصراع بوضوح على مستوى منظومة القيم (الصراع القيمي)، حيث تمكنت الحداثة في بعض الدول والمجتمعات من احتلال مكانة الدين في المجتمع، وبالمقابل هناك مجتمعات رغم اعتمادها على منهج الحداثة إلا أنها ما تزال تحافظ على أصالتها الدينية، وهذا يؤكد لنا صحة الفرضية القائلة بأن الحداثة لا تمحي الدين ، فمهما بلغت درجة تأثير الحداثة على الدين ودوره الاجتماعي فإن ذلك يحول دون إقصائه بحكم أنه يمثل الجانب الروحي لكيان الفرد والمجال المقدس في حياته زيادة على كونه غريزة فطرية في الإنسان لا يمكنه العيش بدونها .

6– الغزو والتغير الثقافي و أثره على الدين

لقد سبق وأشرنا إلى العلاقة التفاعلية بين الثقافة والدين وأن كلاهما يؤثر في الثاني، كما رأينا أيضا أن التغير الثقافي يؤثر على فعالية الدين في المجتمع، والتغير الثقافي هو جزء من التغير الاجتماعي حيث أنه يحدث نتيجة الاحتكاك والتواصل بين الشعوب، كما يحدث نتيجة غزو الشعوب القوية للشعوب الضعيفة وهذا ما حدث في تاريخ الدول والحضارات، حيث أن المغلوب يكون دائما مولعا ومتأثرا بالغالب.

أما الغزو الثقافي فهو" ظاهرة قديمة، يسهل السيطرة الثقافية ويمكن أن يكون نتيجة تخطيط وإرادة، أو نتيجة تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية غير مخططة، أو نتيجة من الأمرين: إنه ينطوي على اتصال بين طرفين الأنا والآخر"(الناشف. ت. 2003. ص 131) وبالتالي الغزو الثقافي يكون إما مباشر أو غير مباشر ويؤدي في نهاية المطاف إلى إحداث تغيير على مستوى الثقافة التي يغزوها. وهنا نشير إلى أن الغزو الثقافي المباشر يحدث بفعل الحركات الاستعمارية وما تحمله معها من قيم ومبادئ ثقافية. أما الغزو غير المباشر فإنه يتم خلال مرحلة ما بعد الاستقلال عن طريق الهيمنة والتبعية الثقافية لتلك الدول المستعمرة (الغازية).

ولقد تعرضت جل الدول العربية الإسلامية لهذا الغزو بنوعيه، والجزائر واحدة منها حيث أنها ما زالت إلى يومنا هذا تعيش في غزو ثقافي من الدرجة الثانية " أي غير المباشر" وهذا من خلال عدة مجالات كالسياسة والاقتصاد وخاصة المجال العلمي حيث أن " عددا كبيرا من الحصص الدراسية في المدارس والكليات والجامعات يخصص لدراسة تاريخ أوربا والغرب عموما ولغته وثقافته "(الناشف. ت. 2003 – ص 129). بالإضافة إلى انتشار موجة العولمة التي تعد أحد أهم أشكال الغزو الثقافي بحيث تهدف إلى كسر وتحطيم الثوابت والخصوصيات الثقافية للشعوب ودمج الكل في ثقافة موحدة.

وفي الوقت الحالي زادت حدة الغزو الثقافي و ذلك من خلال وسائل الإعلام و تقنيات الاتصال الحديثة، حيث انتشرت في مجتمعاتنا الكثير من القيم والأنماط الثقافية الغربية عن ثقافتنا العربية الأصلية مثل ثقافة اللباس والأكل، المعاملات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ...الخ. ونظرا لأهمية الدين في الثقافة، فإن هذا التغير في الجوانب المادية وغير المادية للثقافة سوف يؤثر بطبيعة الحال على وضعية ومكانة الدين خاصة وأن هذا الأخير يمثل المقوم الجوهري في الثقافة.

ومن المنظور السوسيولوجي، فإن الدين باعتباره يمثل الجانب الروحي أو الجانب اللامادي للثقافة، قد تأثر تأثرا كبيرا بعمليتي الغزو والتغير الثقافي وسبب ذلك هو أن القيم والأفكار والتصورات الناتجة عن الغزو والتغير الثقافي تختلف وأحيانا

تتنافى والقيم التي يعمل الدين على غرسها في نفوس الأفراد وتجسيدها في سلوكاتهم وممارساتهم اليومية. وبالمقابل تسعى تلك العمليات إلى استبدال تلك القيم الاجتماعية والدينية وتغييرها بقيم أخرى نابعة من ثقافة أخرى (الثقافة الغربية) تختلف عن ثقافتنا الأصلية. وبالفعل استطاعت الثقافة الغربية الغازية أن تثبت وجودها إلى جانب الثقافة المحلية الأصلية والثقافة العربية الإسلامية بشكل عام. وهذا الوضع جعل الإنسان يعيش في حالة استلاب واغتراب ثقافي مما أثر بشكل مباشر على شخصيته ودينه وثقافته.

7 – الدين والتغير الاجتماعي:

إن العلاقة بين الدين والتغير الاجتماعي مثلت محورا أساسيا ومركزيا في دراسات الكثير من علماء الاجتماع أمثال: دوركايم، فيبر وسبنسر.. الخ. فالدين قد يكون عاملا مؤثرا ومؤديا إلى عملية التغير الاجتماعي، وقد يكون معيقا للتغير الاجتماعي، ومثلما يؤثر الدين في التغير الاجتماعي، فإنه كذلك يتأثر به.

ومن الناحية السوسيولوجية فإن تاريخ الدين الإسلامي يكشف لنا بأن الإسلام أحدث تغييرا وتحولا نوعيا في المجتمع العربي الذي كان يعيش في فترة الجاهلية، وتظهر معالم هذا التغير في قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة :" كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا...فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه...وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور"(محمد الصلابي .ع م. 2001. ص 238)

وبالتالي الدين يعد من أهم العوامل المؤدية للتغير الاجتماعي لأنه يمثل الجانب المقدس من حياة الإنسان ولذا يكون تأثيره على الفرد ودفعه إلى التغيير قويا أكثر من أي عامل آخر. ولقد أشار ماكس فيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية إلى فعالية الظاهرة الدينية في عملية التغير الاجتماعي وخاصة في الجانب الاقتصادي، كما ركز على أهمية الشخصية الكاريزمية والأخلاق الدينية في إحداث التغيير، حيث أنه أشار إلى شخصية النبي أو الرسول ودورها في نشر الدعوة وإحداث التغيير في المجتمع، أما الأخلاق الدينية فإنه أعطى مثالا عن مبادئ كالفن ودورها في النشاط الاقتصادي حيث أنها كانت سببا في ظهور النظام الرأسمالي. كما تناول فيبر" تعاليم الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام وعلاقاتها بتنظيم المعاملات والعلاقات الاقتصادية في ظل القواعد الأخلاقية لكل دين"(عبد الباقي. ز. ص 95)

ولكن بقدر ما ساهم الدين عامة والإسلام خاصة في عملية التغيير الاجتماعي فإن واقعنا الاجتماعي اليوم يدل على أن الدين بشكل عام قد تأثر بعملية التغير الاجتماعي خاصة في مجال القيم والمبادئ الأخلاقية والمعاملات بين الأفراد حيث أن " الدور الثقافي الذي لعبه الإسلام يتراجع في الفترة المعاصرة لمصلحة ومكونات ثقافية لا دينية... وافدة بصورة أساسية من حضارة المجتمعات الصناعية المتطورة «(الديك. ف. ص 82). وبالتالي التغير الاجتماعي الذي عرفه مجتمعنا قد أثر على دور الدين وفعاليته داخل المجتمع. وفي هذا الصدد يقول مرسال موس" إن التغيرات الدينية لا يمكن تفسيرها إلا إذا قبلنا أن التغيرات الاجتماعية تحدث جملة من التعديلات في أفكار المؤمنين ورغباتهم إلى درجة أنها تمس مختلف أجزاء أنساقهم الدينية "(الهرماسي. ع ب.2000. ص 23).

وعليه فإن الدين- الإسلام- بقدر ما ساهم في تسيير وإدارة شؤون المجتمع من خلال ضبط وتوجيه سلوكات وممارسات الأفراد، فإنه لم يكن في معزل عن التحول والتغير الاجتماعي الذي شهده مجتمعنا بجميع أنساقه ونظمه خاصة النظام الأسري والتعليمي وهذا الأمر أثر على دوره ووظيفته في المجتمع.

8- خاتمة

ما يمكننا قوله في ختام هذه الورقة البحثية هو أن الدين والتغير الاجتماعي من المواضيع الحساسة والمهمة في ميدان البحث السوسيولوجي. وقد أثبتت سوسيولوجيا الأديان أن هناك علاقة وثيقة بين الدين كظاهرة اجتماعية وظاهرة التغير الاجتماعي، حيث أن كلتاهما تؤثر في الأخرى، فالدين كان عاملا أساسيا وطرفا فعالا في عملية التغير الاجتماعي كما أن هذا الأخير كان له أثر واضح على مختلف أشكال ومظاهر الدين وتجسد ذلك من خلال تضييق مجال الدين كنسق اجتماعي بسبب انتشار موجة الحداثة التي ترافقت مع تطور العلوم والتقنيات حيث اتجه المجتمع بأفراده وقطاعاته المختلفة نحو الحداثة بما تحمله من مفاهيم وقيم براقة وأخذ يتحرر تدريجيا من سلطة الدين. ولكن إذا كان هذا الوضع يمثل أمر عادي وطبيعي في المجتمع الغربي الذي عانى من ظلم وقهر السلطة الدينية، فان هذا الأمر يختلف في المجتمع العربي الذي يشكل الدين الإسلامي قاعدته الأساسية. ولذا فإن فصل الديني عن الدنيوي في مثل هذه المجتمعات أدى إلى ظهور عدة تجاوزات ومشاكل اجتماعية.

وعلى الرغم من ذلك فإن الدين كان ولا يزال عنصرا فعالا في المجتمع البشري مهما كانت درجة تقدمه أو تخلفه، وهذا من خلال وظائفه المتعددة وصلته الوثيقة بالجانب الروحي أو المعنوي للإنسان فهذا الأخير ليس مجرد مادة وإنما هو تفاعل وتكامل بين المادة والروح ولا يمكنه التجرد من روحانيته لأنه يحن إليها حين تضيق به الظروف والأوضاع الاجتماعية. وهذا ما يطلق عليه العلماء والمختصين "عودة الدين" ولكن هذه مغالطة فالدين لم يختف حتى نقول إنه عاد و" لأن العقيدة الدينية بالرغم من تراجعها أمام هذا التحول المادي المدمر تظل موجودة وجاهزة للعودة بكل قوتها عندما تتحقق الصحوة ويدرك الإنسان الضياع الذي وقع فيه نتيجة هذا التحول المادي (فهمي هيكل. ع ب. 1985.ص 25).

وعليه نخلص إلى القول بأن التغير الاجتماعي الذي تقوده الحداثة خدم المجتمعات الغربية ولكنه لم يخدم المجتمعات العربية المسلمة بسبب طبيعتها الدينية التي لا يمكنها التجرد منها أو إقصائها. فالمقدس والدنيوي لا يمكن فصلها في مثل هذه المجتمعات.

9- قائمة المصادروالمراجع:

1. أحمد رشوان حسين عبد الحميد. (2005). علم الاجتماع النفسي" المجتمع والثقافة والشخصية "د ط. (مكان النشر غير مذكور). مؤسسة شاب الجامعة.
2. هشام الشرابي. (2000). النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي. ط4. (مكان النشر غير مذكور). دار نلسن.
3. زيدان عبد الباقي. (دت). علم الاجتماع الديني. د ط. (مكان النشر غير مذكور). مكتبة غريب
4. زكي الميلاد. (1999). الفكر الإسلامي. ط1. (مكان النشر غير مذكور). مؤسسة الانتشار العربي.
5. محمد أبو يحي. وآخرون. (2000). الثقافة الإسلامية: ثقافة المسلم وتحديات العصر. عمان. دار المناهج للنشر والتوزيع.
6. مصطفى التواتي. (2003). التعبير الديني عن الصراع الإجتماعي في الإسلام. ط2. بيروت. دار الفرابي.
7. محمد السويدي(دت). مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري: تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر. د ط. (مكان النشر غير مذكور). ديوان المطبوعات الجامعية
8. محمد فريد عزي. (2008). الأجيال والقيم: مقاربة للتغير الإجتماعي والسياسي في الجزائر. دكتوراه دولة في علم الاجتماع.. جامعة وهران
9. محمد سعيدي. (1998). العائلة عاداتها وتقاليدها بين الماضي والحاضر: الظاهرة الاحتفالية بالأعياد نموذجا. مجلة الإنسانيات: الأسرة بين الأمس واليوم. العدد 4.
10. صالح هندي وآخرون. (2000). الثقافة الإسلامية. ط1. عمان. دار الفكر.
11. عبد الباقي الهرماسي وآخرون. (2000). الدين في المجتمع العربي. ط2. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
12. عبد العزيز فهمي هيكل. (1985). الإنسان المعاصر والحضارة الإسلامية. (مكان النشر غير مذكور). دار المعرفة الجامعية.
13. علي محمد الصلابي. (2000). السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث الجزء الأول. ط1. (مكان النشر غير مذكور). دار التوزيع والنشر الإسلامية.
14. فهمي سليم الغزوي وآخرون. (2006). المدخل إلى علم الاجتماع. ط3. (مكان النشر غير مذكور). دار الشروق للنشر والتوزيع.
15. فرحان الديك. (1989). الأساس الديني في الشخصية العربية. المستقبل العربي: الدين في المجتمع العربي. العدد126. ص 23-38
16. ريمون بدون وفرونسوابوريكود. (1986). المعجم النقدي لعلم الإجتماع. ط1. (مكان النشر غير مذكور). ترجمة سليم حداد. دار النشر غير مذكورة
17. تيسير الناشف. (2003). السلطة والفكر والتغير الإجتماعي. ط1. (مكان النشر غير مذكور). دار أزمة عمان.
18. *Claude Rivière. (2008). Socio-anthropologie des relegions. Armand colin.2eme édition. Paris.*
19. *Catherine Halpern.(2004) .ce que les croyances ont à nous dire. Revue science humaine : les nouveaux visages de la croyance. N149.*
20. *Denis Jefferey. (1998) .Jouissance du sacré. Armand colin. Paris.*
21. *Mostafa Boutefnouchet. (2004) .Société et Modernité: les principes du changement social. Office des Publications universitaire. Alger.*
22. *Olivier Roy. (2008). Sécularisation et mutation du religieux. Revue (esprit).*